٩

الحالة الاجتماعية في مصر وبلاد الشام في عصر الشمس البِرماوي

The social situation in Egypt and the Levant in the age of the shams Permawi

شهلاء عبد الله عبد القادر المنتفك

Shahlaa Abdullah abdulqadir

بإشراف

أ.د عدي سالم عبد الله الجبوري

أ.د رائد يوسف جهاد العنبكي

Prof audai salim Abdullah

prof raed yousif jihad

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

ملخص البحث

تناول البحث الحالة الاجتماعية في عصر البرماوي رحمه الله تعالى (ت ٧٦٣-٨٣١هـ/ ١٣٦١-١٤٢٧م)، لما للبيئة من الأثر الكبير على حياة الإنسان، فهو يتأثر ببيئته ويُؤثر بها، ولا شك أن البرماوي عاش في بيئة متنوعة الثقافات، فقد كان الحكم المملوكي هو القائم في هذه الفترة، وقد تقسم المجتمع في هذه العصر إلى طبقات منها طبقة الفلاحين، وطبقة التجار، ثم الصنَّاع، والأمراء، وقد كان لهذا التقسيم الأثر في المجتمع المصري من ناحية التمييز بين طبقاته، وأن تقديم طبقة الأمراء وهم من العسكريين الذين حكموا البلاد أثره في الحياة الاجتماعية، فقد انعزلوا عن باقي فئات المجتمع مما أدى إلى تمايز طبقي، واحتكار لبعض الوظائف الحكومية.

ولا شك أن للدين الأثر الكبير في المجتمع المصري في هذه الحقبة، فكثرة الأعياد والمناسبات الدينية مثلا يعطي انطباعًا بأشغال المجتمع بأمور أخرى عن الحكم، وطريقة إدارة الدولة، وتنوع الطرق الصوفية، ووجود الربط والزوايا، وغيرها التي شجعها الحكم المملوكي يعطي تصورُعن الطبيعة الدينية للمجتمع المصري.

من جانب آخر نرى أن هناك حرية دينية للأديان الأخرى منها التي كانت موجودة في مصر، ومنها اليهودية والنصرانية بمختلف طوائفها، ونلاحظ هذه الحرية من خلال إقامة أعيادهم ومناسباتهم بشكل علني مع امتزاجهم بالمجتمع بصورة طبيعية.

أما حال المرأة فنرى المرأة الحاكمة المسلطة من بعد الأمراء الحكام، ونرى المرأة الفقيرة البسيطة، المغلوب على أمرها في الغالب، والمضطهدة في بعض الأحيان.

كما أثرت المجاعات والفيضانات التي تعاقبت على البلاد، في الحالة الاقتصادية والمعيشية للمجتمع المصري، وأدت بعض الأوبئة إلى هلاكات عظيمة بين الناس.

Abstract

Praise be to God, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon His faithful Messenger and upon all his family and companions, and after:

The research dealt with the social situation in the era of al-Baramawi, may God have mercy on him (d. 763-831 AH/1361-1427 AD), because the environment had a great impact on human life, as it was affected by and affected by his environment, and there is no doubt that al-Baramawi lived in a diverse cultured environment. The Mamluk is the one standing in this period, and society in this era was divided into classes, including the peasants class, the merchant class, then the craftsmen, and the princes, and this division had an impact on Egyptian society in terms of distinguishing between its classes, and that the introduction of the class of princes, who are from the military who ruled The country has had an impact on social life, as they were isolated from the rest of society, which led to class differentiation, and a monopoly on some government jobs.

There is no doubt that religion has a great impact on Egyptian society in this era. The large number of religious holidays and occasions, for example, gives the impression of the society's preoccupation with other matters about governance, the way the state is administered, the diversity of Sufi paths, the presence of linkages and angles, and others encouraged by the Mamluk rule gives a perception of the religious nature of Egyptian society..

On the other hand, we see that there is religious freedom for other religions, including those that existed in Egypt, including Judaism and Christianity in their various sects, and we notice this freedom by publicly holding their feasts and occasions as they blend in with society naturally.

As for the situation of the woman, we see the ruling woman who is in control after the ruling princes, and we see the simple poor woman, who is often overpowered and sometimes oppressed.

The successive famines and floods in the country also affected the economic and living conditions of the Egyptian society, and some epidemics led to great deaths among the people.

In conclusion, I say this is a little effort in explaining the social situation in the era of Al-Barmawi, may God have mercy on him

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنه لا يخفى على احدٍ أن للبيئةِ الاجتماعية التي تحيطُ بالإنسان تأثير فيه بصورةٍ مُباشرة أو غير مباشرة، سلباً أو إيجاباً، فقد كان النظام الطبقي هو السائد في المجتمع المملوكي والذي كان قائماً على اعتبار الفلاح في القاع، ثم التجار، والصناع في منزلة أعلى منه، ثم أمراء المماليك وكانوا في قمة هذا المجتمع، إذ عاشوا مُنعزلينَ مُنفصلين عن السكان، لا يختلطون بهم ولا يتزوجون منهم إلا في النادر القليل. ولعل هذا كان ترفّعاً منهم على أهلِ البلاد المحكومين ومحافظةً على الأرستقراطية التي تؤهل للعرش، وقصروا اعمال الجندية على اشخاصهم، وذهبوا الى ابعد من ذلك فأهل مصر كانوا في عهد المماليك يتولون احياناً وظائف القلم، ولم يكن لهم نصيبٌ في الجيش العامل، اللهم الا في بعض الاعمالِ غير العسكرية كأعمال الأئمة (الفقهاء) والصناع، والفعلة، والأتباع[1].

وبسبب كونهم غرباءٌ عن أهل البلاد ولخضوعهم لتربيةٍ خاصةٍ أعدتهم إعداداً ثقافياً، وعسكرياً ليكونوا جُنوداً، وحكاماً، وسياسيين يتوَلونَ الوظائف العليا حسب الكفاية الشخصية في المجتمع دون اعتبارٍ لنشأتهم الأولى، فقد عاشوا كطائفةٍ مُنفصلة عمن حولهم، ولم يختلطوا إلا نادراً بالسكان المحليين من مُسلمين ونصارى، ولم يتزاوجوا معهم إلا فيما ندر، كما احتكروا الجندية عليهم، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوها وقفاً على المماليك الصغار الذين يُجلبون حديثاً، ولم يسمحوا لأبناءِ المماليكِ الكبار من الانخراط فيها، بل قصروهم على الوظائف الإدارية، والكتابية[2]. وإمتازت الحياة الاجتماعية في مصر والشام بكثرة الأعياد الدينية، وفي تلك الأعياد كان الناس يتبادلون التهنئة ويقيمون الولائم، ويتصدقون على الفقراء، ويُبالغون في إظهار السرور[3].

قال المقريزي واصفاً الاحتفال بقدوم السلطان:" فرسم بزينة الْقَاهِرَة من بَاب النَّصْر إِلَى بَاب السلسة من القلعة، وَكتب بإحضار سَائِر مغاني الْعَرَب من أَعمال مصر كلهَا، واستمرت الزِّينَة الى قال: وَتَفَاخَرُوا فِي تَزْيِين القلاع وَأَقْبل أهل الرِّيف إِلَى الْقَاهِرَة للفرحة على قدوم السُّلْطَان وعَلى الزِّينَة فَإِن النَّاس أخرجُوا الْحلِيّ والجواهر واللآلى وأنواع الْحَرِير فزينوا بذلك"[4].

ويصف المقريزي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أيام الظاهر برقوق قائلاً: فإذا انقضتْ صلاة المغرب مدّت أسمطة الأطعمة الفائقة، فأكلت وحمل ما فيها، ثم مدّت أسمطة الحلوى السكرية

(١) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، ص ٦٢٨.

(٢) شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، ص ١١٤.

(٣) د. عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، مصر، سنة (١٩٩٢م)، ص٤٩.

(٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢/ ٣٦٠.

من الجوارشات والعقائد ونحوها، فتؤكل وتخطفها الفقهاء، ثم يكون تكميل إنشاد المنشدين ووعظهم إلى نحو ثلث الليل، فإذا فرغ المنشدون قام القضاة وانصرفوا، وأقيم السماع بقية الليل[1].

ومن أهم الأعياد عند المصريين والتي حدثنا عنها الرحالة هي: الاحتفال برؤية هلال رمضان؛ اذ قال ابن بطوطة:" يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارةٍ وهيئة حسنة فإذا أتى أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً: بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فُرش ذلك الموضع بالبُسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة»[2].

ويمكن تقسيم سكان مصر والشام في العصر المملوكي الى ثماني طبقات: طبقة المماليك وطبقة المعممين، وطبقة التجار، وطبقة طوائف السكان أرباب المهن في المدن، وطبقة اهل الذمة، وطبقة الفلاحين، وطبقة الأعراب، وطبقة الأقليات الأجنبية[3].

اما ابن خلدون فيصف طبقية المجتمع المصري بقوله:" فملك مصر في غاية الدّعة والرّسوخ لقلّة الخوارج وأهل العصائب إنّما هو سلطان ورعيّة ودولتها قائمة بملوك التّرك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبتٍ إلى منبت، والخلافة مسمّاة للعبّاسيّ من أعقاب الخلفاء ببغداد"[4]

تركيبة المجتمع المصري:

لم يكن هناك من الأقليات الدينية في مصر زمن المماليك اضافة الى الدين الإسلامي الحنيف سوى المسيحين، واليهود. بيد أن المسيحيين كانوا ينقسمون الى فرقتين أساسيتين هما: الملكانية أو الملكية، واليعاقبة.

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٣/ ٣٩٩.

(٢) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ١/ ٢٠.

(٣) عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، مصر، سنة(١٩٩٢م)، ص١٦.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، سنة(١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٢٠٧.

أما اليهود فكانت طوائفهم ثلاثاً هي: الربانون أو الربانيون أو الربيون، والقراءون، والسامرة. ومن الطبيعي ان يكون سبب تعدد الطوائف في أية ديانة راجعاً الى الخلافات، والمنازعات التي تنشب بين أتباعها حول تفسير أمور معينة، وهو ما يصدق بالضرورة على كل من الديانة اليهودية، والديانة المسيحية[١]

وكان لأبناءِ الطائفةِ الملكانية عددٌ قليل من الكنائس في أنحاء البلاد منها:" كنيسة مارنقولا" وكنيسة" غبر يال الملاك"، و» كنيسة السيدة"، و» كنيسة ماريو حنا» بالفسطاط كذلك اكانت الأديرة التابعة لأبناء هذه الطائفة قليلة هي الأخرى وهو ما يبدو منطقياً في ضوء الحقيقة القائلة بأن أعدادهم كانت ضئيلة بالفعل[٢]

أما اليعاقبة: فهم الأقباط أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهم ينسبون الى يعقوب البراذعي أحد زعمائهم، وقيل: غير ذلك، وقد أحصى المقريزي ما يزيد على (٨٢) كنيسة لهم، بالإضافة الى الأديرة[٣]

وعرفَ تاريخ اليهود الطويل انقسامهم الى عدة فرق دينية تزعم كل منها أنها صاحبة المذهب الأمثل، والأقرب الى أصول الديانة اليهودية، والحديث يطول في هذا المجال، وما يهمنا هنا ان مؤرخي عصر المماليك اعتبروا ان كلاً من الربانيين والقرائين بمثابة الفرقة اليهودية الواحدة على الرغم من تفهمهم لحقيقة الخلافات بين الجانبين. وقد احصى المقريزي"١١» معبداً يهودياً في القاهرة، والفسطاط، والأقاليم، ومنها:" كنيسة دموه"، "كنيسة جوجر»[٤]

وتكشف أعداد المعابد اليهودية الضئيلة عن ان يهود مصر آنذاك كانوا أقلية ضئيلة بالفعل[٥]

وكما كان للمسلمين اعيادهم التي يحتفلون بها كاحتفالهم برؤية هلال رمضان الكريم والعيدين والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وغيرها من الأعياد. كذلك كان للنصارى، واليهود اعيادهم الخاصة بهم وهي كثيرة فالنصارى كان لهم"١٤» عيداً، سبعة صغيرة، وسبعة كبيرة ومنها:" عيد البشارة" و" عيد الزيتونة" و" عيد الفصح" وغيرها. أما أعياد اليهود الشرعية فكانت" ٥" أعياد ومنها: "عيد رأس السنة" و"عيد صوماريا"، وغيرها[٦]

وقد رسم الرحالة أبن بطوطة صورة لمصر ومجتمعها قائلاً:" ويقال أن بمصر من السائقين على الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة

(١) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الشروق، سنة(١٤١٥ه-١٩٩٤م) ص٨٦.
(٢) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ٤/ ٤٥٢.
(٣) المواعظ والإعتبار، ٤/ ٤٣٨- ٤٥١.
(٤) المواعظ والإعتبار، ٤/ ٣٦٢.
(٥) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٩٢.
(٦) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص١٢١.

وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب، وسرور، ولهو"[1].

أما المرأة فكان لها دوراً متميزاً، وفعالاً في المجتمع المملوكي، إذ لم يبخل الحكام على نسائهم وبناتهم بالمال والمتاع، واسبغوا عليهن القاب التشريف، وخاطبوهن في المكاتبات بعبارات التشريف والتكريم، واطلق عامة الشعب على نسائهم القاباً تنم عن التقدير والاحترام مثل: "ست الملوك"[2] و"ست الكل"[3] وذلك من باب الفخر والتزكية والثناء والتعظيم لهُنَّ. واقتنى السلاطين والأمراء الجواري للغناء والطرب، فكان لكل مالك أو أمير جوقة مغنيات كاملة من الجواري وكثيراً ما تزوج الأمير جاريته حيث يتواتر أسماء كثير من الجواري اللواتي قدر لهن ان يلعبن أدوراً مهمة في قصور السلاطين، والأمراء[4]

أثر المجاعات على حياة المجتمع:

من الطبيعي ان يكون للمجاعات أثرها على أخلاقيات الناس وفي تصرفاتهم اليومية ففي اثنائها ينكشف حال كثير من الناس وتشح النفوس بسبب قلة الطعام ويصف المقريزي حال المجتمع قائلاً: "وانكشف حَال كثير من النَّاس وشحت الأنفس حَتَّى صَار أَكَابِر الْأُمَرَاء يمْنَعُونَ من يدْخل عَلَيْهِم من الْأَعْيَان عِنْد مد أسمطتهم، وَكثر تَعْزِير محتسب الْقَاهِرَة ومصر لبياعي لُحُوم الْكلاب وَالْمَيتَات ثمَّ تفاقم الْأَمر فَأكل النَّاس الْميتَة من الْكلاب والمواشي وَبني آدم وَأكل النِّسَاء أَوْلَادهنَّ الْمَوْتَى"[5].

ولجأ بعض التجار الى اساليب الغش أثناء هذه الأزمات، المجاعات، والأوبئة، فخلطوا الدقيق بغيره من المواد كما حدث أيام الناصر محمد بن قلاوون اثناء مجاعة سنة(٧٣٦هـ)، وفي هذا قال المقريزي: "إذ أصبح الخبز كالكسب من السواد"[6]

وبسبب ارتفاع الأسعار، وانعدام الأقوات ينعدم علف الحيوان بسبب ارتفاع الأسعار، ومن ثم تنفق الماشية، والأبقار، وحيوانات الزراعة ولما كانت هذه الحيوانات هي القوة المحركة المعول عليها في ذلك العصر لبناء الجسور وسائر أعمال ضبط النهر، فإنه نتيجة لموتها تتوقف أعمال صيانة الجسور، وأعمال الري، بجانب الأعمال الزراعية التي يعتمد فيها على الحيوان، وبالتالي تتوقف سائر مصالح البلاد"[7]

وهكذا نرى ان النظام الإقطاعي هو النظام الذي قام عليه العصر المملوكي فالمجتمع المصري في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً في علاقاته، وإتجاهاته، وهو الأمر الذي انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة في

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، ١/ ٢٥.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ١٢/ ٥٨.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ١٢/ ٥٨.

(٤) د. العنزي، احمد شامخ الحميد، الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني، وزارة الثقافة الهيئة العامة، دمشق، سنة(٢٠١٠م)، ص ٨٧.

(٥) السلوك، ٢/ ٢٦٧.

(٦) أغاثة الأمة، ص٣٩.

(٧) د. قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٥٩.

مصر آنذاك. غير ان المجتمع المصري لم يبقَ على حال من الجمود والثبات طوال عصر سلاطين المماليك، فالواقع ان المجتمع المصري في عصر الجراكسة، اختلف عنه في عصر البحرية، فالصورة الزاهية الزاخرة بالحركة والحيوية للحياة المصرية في أوائل ذلك العصر كانت تعبر عن مجتمع إقطاعي في دور صعوده، فالبناء السياسي متيناً محكماً، وعلى قمة السلطة تربع السلاطين الأقوياء القادرون من أمثال الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والنصر محمد بن قلاوون الذين استطاعوا ان يحكموا قبضتهم على أمرائهم ومماليكهم، وان يُرسوا دعائم الأمن، والاستقرار، ولِذا كانت الدولة قادرة في الداخل مُهابة في الخارج وساعدهم على ذلك نشاط زراعي مزدهر، بفضل العناية بمرافق الري، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور، ونظام إقطاعي صارم يحكم المماليك، فأدى ذلك الى خلق نوع من الاستقرار النسبي، على الرُغم من بعض مظاهر الإضطراب التي شابته أحياناً ولكنَّ التدهور الذي ألَمَّ بالبلاد منذ بداية القرن (٩ه تقريباً/ ١٥م) جعل الألوان الزاهية تتراجع أمام الظلال، والألوان القاتمة الحزينة التي جاءت إيذاناً بمغيب دولة، وسقوط حضارة، عاش العالم الإسلامي في ظلها الظليل زمناً طويلاً[١].

ومن المظاهر الاجتماعية في مصر وبلاد الشام في العصر المماليكي:

أولا: التصوف:

التصوف: النسك والزهد، والتفقه بالدين ظهر على استحياء في القرن الثالث الهجري ثم انتشر رويداً رويداً.. ولم يتخذ شكل الظاهرة الاجتماعية قبل العصر الأيوبي، لقد كان هناك فريق من المتصوفة أقرب الى الفلاسفة، يميلون الى العقل أكثر مما يجنحون الى الخرافات والغيبيات، ولكن مصرع الشيخ السهروردي بتحريض مشايخ حلب وبفتوى منهم وبأمر من صلاح الدين الأيوبي سنة(٥٨٧ه) كان مؤشراً على اتجاه يناصر الدروشة على حساب العقل وزُلفى الى جيوش العامة من المريدين الذين تبعوا اولئك الدراويش، وتمثل اهتمام صلاح الدين والأيوبيين بهذا النمط من التصوف في اعتماد صلاح الدين الأيوبي عليهم في إذكاء حماسة جنوده من جهة، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليهم من جهة أخرى، وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة، ظهر المتصوفة الدراويش، وأصحاب الطرق[٢].

ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماطاً غريبة من الدراويش، وأصحاب الطرق لاسيما في عصر سلاطين المماليك لدرجة أنه وجِدتْ في مصر آنذاك حوالي (٣٦) فرقة، وقد استغل سلاطين المماليك الصوفية في تدعيم سلطانهم، والترويج لهم عند العامة[٣] ومنذ بداية هذه الدولة كان السلطان الظاهر

(١) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص١١.

(٢) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٤٧.

(٣) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي،، دار المعارف، سنة(١٩٧١م)، ١/ ١٩٣.

بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش، والمجاذيب[1].

وكذلك فعل المنصور سيف الدين قلاوون، وسائر سلاطين المماليك، ولم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون استثناء في ذلك بطبيعة الحال، وقد أشار ابن بطوطة الى ذلك عن حديثه عن الزوايا في مدينة القاهرة، إذ قال:" وأما الزوايا فكثيرة وهُم يُسمونها الخوانق، واحِدتُها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية...»[2].

(١) محي الدين عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، سنة(١٩٧٦م)، ص٢٣٨..

(٢) رحلة ابن بطوطة، ١/ ٢٦.

ثانيا: الخوانق[3]:

تسابق الناسُ في العصر المملوكي في بناء المدارس لطلبة العلم، والاستكثار منها فضلاً عن بناء الخوانق وهي: أماكن عبادة الفقراء من الصوفية، قال ابن خلدون:" أهل هذه الدّولة التركية بمصر والشام معنيّون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيّوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التّخلّق بآداب الصّوفيّة السّنّية في مطارحة الأذكار، ونوافل الصّلوات. أخذوا ذلك عمّن قبلهم من الدّول الخلافية، فيختطّون مبانيها ويقفون الأراضي المغلّة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدرّبي الفقراء، وإن استفضل الرّيع شيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذّرّية الضّعاف من العيلة، واقتدى بسنّتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرّئاسة والثّروة، فكثرت لذلك المدارس، والخوانق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء، والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدّولة التّركية وآثارها الجميلة الخالدة"[4].

وقال القلقشندي من جانبه: "وأما الخوانق والرّبط فمما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة

(٣) الخوانق: جمع مفردها الخانقاه، وتنطق أحيانا خانكاه وخانقاه: كلمة فارسية معناها بيت، وقيل: أصلها خونقاه؛ أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، والخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٤/ ٢٨٠.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ٧/ ٦٦٧ – ٦٦٨.

الأيوبية، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فابتنى (الخانقاه الصلاحية) المعروفة بسعيد السعداء، وسعيد السعداء لقب لخادم للمستنصر الفاطميّ اسمه قنبر كانت الدار له، ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح طلائع بن رزّيك، ولما ولي الوزارة فتح من دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض، وسكنها شاور السعدي وزير العاضد ثم ولده الكامل. فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه، ووقف عليها قيساريّة الشّرب داخل القاهرة، وبستان الحبّانية بزقاق البركة"[1].

ومن أشهر تلك الخوانق:

١- الخانقاه الأسدية:

وتقع بدرب الوزير قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة:" والخناقاه الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين إنشاء أسد الدين شيركوه الكبير منشئ المدرسة الأسدية بالشرف القبلي ظاهر دمشق المطلة على الميدان الأخضر وإن المدرسة هذه مشتركة بين الفريقين، الشافعية والحنفية"[2].

ذكره الذهبي في من توفي سنة(٧٤٠ه):" ومات بدمشق الشيخ المعمر نجم الدين بن بركات أبو الفضل بن القرشية البعلي الصوفي أحد أعيان الصوفية وأكابر الفقراء القادرية عن تسعين سنة أو أكثر حدث عن الشيخ الفقيه وكان خاتمة أصحابه، وابن عبد الدايم وابن أبي اليسر وجماعة وولي مشيخة الشبلية والأسدية توفي في شهر رجب"[3]

٢- الخانقاه الأندلسية المشهورة:

موقعها شرقي العزيزية والأشرفية داخل الكلاسة لصيق الجمقيقية غربي السميصاتية قال بعضهم: وقفها مختلط. وهي الخانقاه المعروفة بأبي عبد الله محمد ابن أحمد بن يوسف الأندلسي قبالة السميصاتية، ومن صوفيتها العلامة شهاب الدين أحمد العنابي[4]

وقال ابن كثير في من توفي من الأعيان سنة(٦٨١ه):" القاضي أمين الدين الاشتري ابو العباس أحمد بن شمس الدين أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحه الحلبي المعروف بالاشتري الشافعي المحدث سمع الكثير، وحصل ووقف أجزاء بدار الحديث الأشرفية توفي رحمه الله تعالى بالخانقاه الأندلسية يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول عن ست وستين سنة. وكان الشيخ محيي الدين النواوي يثني عليه، ويرسل له الصبيان ليقرأوا عليه في بيته لأمانته عنده وصيانته وديانته"[5]

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٣ / ٤١٧.

(٢) أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة – بيروت، سنة(١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ٢/ ١١٤.

(٣) العبر، ٤/ ١١٦

(٤) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١١٠.

(٥) البداية والنهاية، ١٧/ ٥٨٦.

ثالثا: الرباطات[1]

ومن أشهرها:

١- الرباط البياني:

وموقعه داخل باب شرقي وهو رباط أبي البيان بناه بحارة درب الحجر[2] وفي معرض حديث الذهبي في من مات سنة (٦٣٥ه) قال:" ومحمد بن نصر الدين بن عبد الرحمن بن محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي شرف الدين ابن أخي الشيخ أبي البيان أديب شاعر صالح زاهد وولي مشيخة رباط أبي البيان وروى عن ابن عساكر توفي في شهر رجب رحمه الله"[3]

٢- الرباط التكريتي:

ويقع بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون[4] أشار اليه ابن كثير في حديثه عن أخبار سنة(٦٧٠ه):" وجيه الدين محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي التاجر الكبير ابن سويد ذو الأموال الكثيرة وكان معظماً عند الدولة ولا سيما عند الملك الظاهر كان يجله ويكرمه لأنه قد كان أسدى إليه جميلاً في حال إمرته قبل أن يلي السلطنة، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، وكانت كتب الخليفة ترد إليه كل وقت، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك حتى ملوك الفرنج في السواحل وفي أيام التتار وهولاكو وكان كثير الصدقات والبر»[5].

٣- رباط صفية:

ذكره البرزالي في حديثه عن أحداث سنة(٦٣٣ه) من تاريخه في ترجمة بنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء الحنفي: إنها كانت شيخة رباط صفية القلعية جوار بيتنا بالقرب من المدرسة الظاهرية[6].

٤- رباط الشيخ محي الدين بالصالحية بناه على قبر محي الدين ابن عربي السلطان سليم خان وجعله جامعاً وتكية لطعام الفقراء في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قاله القرماني. وهو موجود إلى اليوم[7]

رابعا: التُرب:

لقيتْ الأضرحة والتُرب اهتماما كبيراً في العصر السلجوقي، وكثُر بناء الأضرحة، والترب في العصر

(١) الرُبط: جمع رِباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله. قال ابن سيده: الرباط من الخيل، الخمس فما فوقها والرباط والمرابطة: مُلازمة ثغر العدوّ، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً وربما سميت الخيل نفسها رباطاً، والرباط: المواظبة على الأمر. قال الفارسيّ: هو ثان من لزوم الثغر، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل وقوله تعالى:﴿ وَصابِرُوا وَرابِطُوا ﴾ سورة آل عمران]٢٠٠[. قيل: معناه جاهدوا وقيل: واظبوا على مواقيت الصلاة. وقال أبو حفص السهروردىّ في كتاب عوارف المعارف:" وأصل الرباط ما تربط فيه الخيول، ثم قيل: لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد، والبلاد". ينظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار، ٤/ ٣٠٢

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١٥٠.

(٣) العبر، ٣/ ٢٢٤.

(٤) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١٥٠.

(٥) البداية والنهاية، ١٧/ ٥٠١-٥٠٢.

(٦) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١٥١.

(٧) محمد كرد علي (ت١٣٧٢هـ)، خطط الشام، ط٣، مكتبة النوري، دمشق، سنة(١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٦/ ١٣٥.

الأيوبي، ولكن انتشارها زادَ بشكلٍ كبير في العصر المملوكي في مصر والشام.

ومنها البلبانية والتي يظهر انها أكثر من واحدة.

١- التربة البلبانية:

وتقع شرقي مدرسة الخبيصية وقبلي حمام الجيعان وغربي الزنجبيلية ودار الأطعمة وليها ابن خطيب عذرا ثم الشمس البرماوي، ثم البهاء حجي، ثم البرهان بن المعتمد ولم أقف على ترجمة واقفها[١].

٢- التربة البلبانية:

وتقع جوار مئذنة فيروز قرب المدرسة المسمارية الحنبلية وهي تربة الأمير سيف الدين طرناه بلبان وكان الأمير المذكور خازندار بالديار المصرية ثم أنه جهزه السلطان الملك الناصر إلى صفد نائباً فحضر إليها ووقع بينه وبين الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام فعزله السلطان ورسم بتوجيهه إلى دمشق يطلبه فلما وصل إليها ودخل إليه ليقبل يده ويسلم عليه قبض عليه وبقي في الاعتقال عشر سنين فما حولها ثم أنه شفع فيه فأخرج من الاعتقال وجعل أمير مائة مقدم الف ثم إنه أقبل عليه واختص به وكان يشرب معه القمر؟ ولم يزل إلى أن توفي بعد(٧٣٤هـ) ودفن بتربة جوار داره عند مئذنة فيروز قاله الصفدي[٢].

ذكره ابن كثير في من توفي من الأعيان سنة(٧٣٤هـ) فقال:" الأمير سيف الدين بلبان طرناه بن عبد الله الناصري كان من المقدمين بدمشق وجرت له فصول يطول ذكرها ثم توفي بداره عند مئذنة فيروز ليلة الأربعاء حادي عشر شهر ربيع الأول من السنة ودفن بتربة اتخذها إلى جانب داره ووقف عليها مقرئين ورتب عنده مسجداً بإمام ومؤذن"[٣]

٣- التربة البلبانية:

وتقع بطريق الصالحية غربي سويقه صاروجا. جاء في حديث تقي الدين بن قاضي شهبة في جمادى الآخرة سنة(٨٣٦هـ):" الأمير سيف الدين بلبان الحموي تنقل إلى أن استقر أتابك العسكر بدمشق لما انتزعها المؤيد من نوروز في صفر سنة تسع عشرة ثم قبض عليه في شوال منها وسجن بقلعة دمشق ثم أطلق ونفي إلى طرابلس ثم أعطي تقدمة في شهر رمضان سنة عشرين ثم انتقل إلى تقدمه أخرى خير منها وهي التي كانت أقطاع الحجوبية فالقصير منها والمعظمية أيضاً وحج بالناس سنة تسع وعشرين وعمر داراً حسنة بطريق الصالحية غربي سويقه صاروجا وعمر مصنع ماء غباغب ووقف عليه نصف البلد اشتراه من السلطان ووقفه واستمر في دمشق إلى أن نقل إلى حجوبية طرابلس في المحرم من السنة الخالية فباشرها بعنف زائد وكان موصوفاً بالشجاعة وعنده مروءة كثيرة ومساعدة لمن يقصده لكنه كان مصراً على أنواع من الفواحش توفي بطرابلس في هذا الشهر بعد مرض كثير، وسُرَّ أهلُ طرابلس بموته، وحُمل إلى دمشق

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١٨١.

(٢) الوافي بالوفيات، ١٠/ ١٧٨.

(٣) البداية والنهاية، ١٨/ ٣٧٠.

فدُفن بتربة شرقي داره وكان قد جدد فيها وبيضها، ودفن بها ابنهُ أيضاً[1].

وهكذا نرى من خلال المصادر التاريخية التي تسنى لي الإطلاع عليها انَّ الشيخ شمس الدين البرماوي كانت لهُ اليد الطولى في رفد الحركة العلمية في أبرز العلوم التي إشتهر بها عصره الى جانب العلماء الآخرين، وهي العلوم النقلية لاسيما علوم الحديث والسيرة النبوية المطهرة وعلوم العربية، والتاريخ، والتصوف. إما مدرساً، أو خطيباً، أو مؤلِفاً فكان تلاميذهُ ينتشرون في كل حدبٍ وصوب، وتصانيفهُ في مختلف العلوم الشرعية، وعلوم العربية، وولي التدريس والخطابة في أغلب وأشهر المدارس، والخوانق، والرباطات، والترب المعروفة آنذاك، والتي كانت كل واحدة منها بما حوتهُ من شيوخ وعلماء أفذاذ، وطلاب نجباء، بمثابة الجامعات العلمية الرصينة في وقتنا الحاضر.

ولا يفوتني ان أُشير الى دور السلاطين المماليك الذين كانوا يشجعون علوم الكتاب والسنة ويفضلونها على من سواها من العلوم العقلية ويوقفون الأوقاف الكثيرة للإنفاق عليها وعلى مدرسيها، وطلابها للأسباب التي سبق لنا الإشارة اليها.

وفي الختام

فهذا مختصر للحالة الاجتماعية للفترة التي عاش فيها البرماوي رحمه الله تعالى

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢/ ١٨١.

المصادر

١. ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، سنة(١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

٣. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو العباس شمس الدين، الإربلي (٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان.

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر للطباعة والنشر، بيروت (١٤١٨هـ -١٩٩٧م).

٥. أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة – بيروت، سنة(١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

٦. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بسيوني

زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار الحياة، بيروت لبنان.

٨. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، سنة(١٩٧١م).

٩. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، بيروت لبنان.

١٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفياتـ تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت لبنان، ٢٠٠٠م.

١١. عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، مصر، سنة(١٩٩٢م)

١٢. العنزي، احمد شامخ الحميد، الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني، وزارة الثقافة الهيئة العامة، دمشق، سنة(٢٠١٠م)

١٣. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الشروق

١٤. القلقشندي، ااحمد بن علي بن أحمد الفزاري ثم القاهري، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، بدون تاريخ.

١٥. محمد كرد علي (ت١٣٧٢هـ)، خطط الشام، ط٣، مكتبة النوري، دمشق، سنة(١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)

١٦. محي الدين عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، سنة(١٩٧٦م)، ص٢٣٨.

١٧. مقدمة ابن خلدون

١٨. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني، تقي الدين أبو العباس، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٩٧م

١٩. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٢٠. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة.

٢١. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٩٠م.